يوسف ابراهيم يزبك

١٩٠١ – ١٩٨٢

يوسف ابراهيم يزبك مؤرِّخ لبناني معروف. كرس القسم الأساسي من كتاباته التاريخية لأحداث لبنان في النصف الثاني من القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين. لكنه، بعكس زملائه المؤرخين القدامى والمعاصرين، لم يدرس علم التاريخ في المعاهد والجامعات. بل هو اعتمد على ما كان قد كدَّسه من تجربة مبكرة في متابعة ومعايشة أحداث كبرى شهدها لبنان، منذ الحرب العالمية الأولى وما تلاها من أحداث كبرى غيَّرت مجرى تاريخ بلداننا وبلدان المنطقة برمَّتها.

توقفت دراسته عند المرحلة الثانوية. ولم يكن انصرافه عن التعليم الجامعي خياره. بل كان نتيجة للوضع الإجتماعي لعائلته. إذ اضطرته ظروف الحياة الصعبة لأن يبحث عن وظيفة يؤمِّن من دخله منها شروط عيش كريم له ولمن كان مسؤولاً عن إعالته. فوجدها في الصحافة أحياناً وفي دوائر الدولة أحياناً أخرى.

غير أنَّ يوسف يزبك الذي اشتهر كمؤرِّخ لم يكن مؤرِّخاً وحسب. كان مثقفاً طليعياً، عامراً بالحيوية والذكاء والوعي. وكان وعيه وطنياً وقومياً واجتماعياً وإنسانياً أممياً. وهي صفات وسمات تدل على تنوع شخصيته وتدل على وعيه المبكر بقضايا عصره الكبرى وقضايا وطنه لبنان وقضايا العرب جميعاً. ففي الثانية والعشرين من عمره كان الشاب يوسف قد اطلع على أفكار الثورة الفرنسية وتأثر بها، وربطته علاقة فكرية بكبار رموزها في الفكر وفي العمل الثوري. وكان قد اطلع أيضاً على أفكار ثورة أكتوبر الاشتراكية. وصار، وهو في العقد الثاني من عمره، يعتز بانتمائه إلى الثورتين العظيمتين معاً. ولم يفارقه ذلك الانتماء المزدوج على امتداد حياته. وقادته أفكاره الطليعية لكي يكون شريكاً في كل عمل وفي كل نشاط سياسي وفكري وعملي يتصل بالنضال ضد الاستعمار وضد الظلم، وضد كل مظاهرهما التي تجلت

عشية الحرب العالمية الثانية بالفاشية وبالنازية. ورغم أنه تخلى عن العمل السياسي المباشر كيساري، وانصرف إلى الكتابة التاريخية، فإنه ظل في المراحل اللاحقة من حياته يعتز بانتمائه إلى الأفكار الإشتراكية. وبرز ذلك الاعتزاز في أواخر الكتب والكتابات التي صدرت له. وأهم تلك الكتب بهذا المعنى "حكاية أول نوار" الذي صدر في عام ١٩٧٤، في ما يشبه السيرة. إذ ربط في هذا الكتاب بين تأريخه لجذور أول أيار كعيد عالمي للعمال، وبين تاريخ انتمائه هو إلى الاشتراكية منذ مطلع شبابه. وجعل ذلك الكتاب بمثابة هدية إلى الإحتفالية الكبرى في الذكرى الخمسين لتأسيس الحزب الشيوعي اللبناني، التي كانت حدثاً سياسياً مميزاً في ذلك التاريخ. وشارك في الإحتفالية للتأكيد بأنه، وهو أحد مؤسسي الحزب، لم يغادر انتماءه إلى الأفكار التي شكلت وعيه المبكر.

وُلد يوسف ابراهيم يزبك في القدس في عام ١٩٠١ لأب كان يعمل في مطبعة الآباء الفرنسيسكان، ولأمٍّ تنتسب إلى عائلة الشدياق المعروفة في لبنان وفي العالم العربي. فهو إذن نسيب أحمد فارس الشدياق، أحد كبار رموز حركة النهضة العربية في القرن التاسع عشر. توفي الوالد في عام ١٩٠٤. وكان يوسف لا يزال طفلاً. فانتقلت الأم من القدس إلى متصرفية جبل لبنان لتستقر مع عائلتها في بلدة "الحدث". والتحق الطفل يوسف في عام ١٩٠٦ بمدرسة نسيبه لأمِّه يوسف الشدياق. وهي المدرسة المعروفة بمدرسة مار يوسف الأنطونية في مدينة بعبدا. وكان من أساتذته في المدرسة الشاعر اللبناني وديع عقل. بقي في تلك المدرسة إلى أن أغلقت أبوابها في عام ١٩١٥ بسبب اندلاع الحرب العالمية الأولى. ومع إغلاق تلك المدرسة أبوابها، وكان يوسف قد بلغ الرابعة عشرة من عمره، طويت صفحة الدراسة في حياته. فانتقل إلى العمل في ميدان الصحافة. وقد أتاح له اختياره ميدان الصحافة للعمل إغناء معارفه في مختلف ميادينها. كما أتاح له التعرف إلى أدباء وشعراء لبنان في تلك الحقبة. وصار خلال

أعوام قليلة صاحب معرفة وشهرة في ميادين اهتماماته الفكرية والسياسية. وهو ما دلت عليه بوضوح كتاباته. وكانت أول تجربة له في العمل الصحفي في جريدة "الصحافي التائه" لصاحبها إسكندر الرياشي. وكان الرياشي في ذلك التاريخ صاحب ميول إشتراكية. كان يوسف يوقع مقالاته بأسماء مستعارة. وكان أكثر تلك الأسماء المستعارة شهرة اسم "الشبح الباكي". كان يريد يزبك باختيار ذلك الإسم أن يذكّر بالمظالم التي كان يعاني منها شعبه اللبناني في تلك الحقبة، وكانت تعاني منها أكثرية شعوب العالم. كما كان يرمز في الآن ذاته إلى شبح التغيير الذي كانت تشير إليها الاشتراكية القادمة. وسرعان ما بدأ يعبر بوضوح عن انتمائه إلى تلك الاشتراكية، حتى قبل أن تتضح أفكارها في ذهنه. وانتهى به الأمر بعد عامين من نشر مقالاته تحت ذلك التوقيع إلى الإشتراك مع عدد من العمال والمثقفين في تأسيس الحزب الشيوعي اللبناني في عام ١٩٢٤، ثم في تأسيس حزب الشعب في عام ١٩٢٥.

يقول يزبك في مقال له في جريدة "الصحافي التائه" في عام ١٩٢٣، في التعريف باشتراكيته وبالأسباب التي دعته للانتماء إليها: "أنا اشتراكي صميم. نشأت، ولا افتخار، بين رخاء العيش في بيت كريم. فشئت أن آخذ عن ذويٍّ حسن آدابهم، تاركاً لهم أموالهم وأرزاقهم واعتقاداتهم الاجتماعية والدينية. وتفرَّدت بكسب عيشي، واتّباع مبادئ إن لم يكن جلّها "سماوية" فكلها إنسانية. نظرت إلى العالم بعين مجرَّدة منزَّهة فرأيته معتركاً هائلاً بين الغني والفقير، والقوي والضعيف . فراعني أن يظلم الأول الثاني، وبين الناس ممَّن يدَّعون العواطف الحساسة الشريفة، والأخلاق الطيِّبة النبيلة . فتطوَّعتُ للخدمة أينما وجدت سبيلاً إليها غير مكترثٍ بالصدمات والمحن. أرجو، بعد هذا التمهيد، أن لا يتهمني القارئ بأني أدافع عن الاشتراكية مدفوعاً بتأثير البيئة والمحيط، أو بعامل البؤس والشقاء، لا. بل إني أدافع عن هذا المذهب السامي بضمير منزَّه وقلب حر، جلّ ذنبه أنه يحب البؤس ومن لاذ بمرارة البؤس. قلت في

عبارتي الأولى: إني اشتراكي صميم. أجل إني لكذلك! بل أنا ثائر متمرِّد متطرِّف، ولكن على الظلم والفوضى والخرافات. وأن هذا الجبار الذي أشعر بنبضاته الآن بين جنبيَّ، لم يختلج لغير الشفقة والرأفة والحنان، ولن يختلج لغير نصرة الحق وخدمته... ".

ويقول بعض الذين تصدوا للكتابة عن يزبك وعن الحقبة التي صار فيها إشتراكياً، ومنهم محمد دكروب في كتابه "جذور السنديانة الحمراء"، أن ثمة مصدرين أساسيين لانجذاب يوسف يزبك إلى الاشتراكية. المصدر الأول هو معرفته المبكرة بما كان يجري في ما سمَّاه معامل البؤس من استغلال وقهر للعمال، وتأثره بنسيب والدته المفكر والأديب النهضوي الكبير أحمد فارس الشدياق. ومعروف أن الشدياق كان أول من نقل إلى العربية كلمة "اشتراكية" مرفقة بتفسير معناها الاجتماعي. وكان قد قرأ يوسف وهو صبي كتاب الشدياق "الساق على الساق فيما هو الترياق" الذي وردت فيه الإشارة إلى الإشتراكية. أما المصدر الثاني، الذي يحرص يوسف يزبك بالذات على التأكيد عليه، فهو علاقته الوثيقة بثقافة فرنسا الثورة، وتأثره بمثقفيها الاشتراكيين الكبار. وكان نموذجه المفضّل بين أولئك المثقفين أناتول فرانس، الذي ترجم له بعض رواياته وبعض كتاباته.

يضاف إلى ذلك أن يوسف لم ينسَ وهو طفل كيف سيق أخوه أنطون إلى السجن ظلماً. ولم ينسَ ظروف سفره الصعبة مع والدته إلى المكسيك في عام ١٩٠٩، وكان لا يزال في الثامنة من عمره. وهي الظروف التي أوحت إليه في عام ١٩٢٩ بكتابه الشهير "المواشي البشرية". ويقصد يزبك بالمواشي البشرية في كتابه جماهير اللبنانيين الذين دفعتهم ظروف الحياة الصعبة في لبنان إلى الهجرة، بسبب الحرب العالمية الأولى وبسبب المجاعة التي تولدت عنها. وكانت ظروف السفر إلى المغتربات شديدة الصعوبة. لكن ما زاد من ثورة يوسف الفتى، كما يشير إلى

ذلك في بعض كتاباته، مشاهدته إعدام الشهداء في ٦ أيار من عام ١٩١٥ في ساحة البرج وسط العاصمة بيروت على يد القائد العثماني جمال باشا السفاح. وهي جميعها شروط تفاعلت فيما بينها فولَّدت عنده تلك الثورة التي انتهت به إلى أن يكون أول أمين عام للحزب الشيوعي لدى تأسيسه في عام ١٩٢٤، وأن يكون أحد زعماء حزب الشعب الذي شارك في تأسيسه في عام ١٩٢٥، وأن يكون أحد الخطباء الأساسيين في أول مهرجان عمالي علني يقام في لبنان، وربما في العالم العربي، في سينما كريستال في بيروت احتفالاً بأول أيار بدعوة من حزب الشعب في عام تأسيسه. وكان من أبرز خطباء ذلك المهرجان إلى جانب يزبك المفكر خير الله خير الله، والشاعر الياس أبو شبكة والقائد العمالي أمين عام حزب الشعب فؤاد الشمالي. وقد ارتأى خير الله أن يروي في خطابه للحضور بعضاً من ذكرياته عن احتفال قديم بعيد أول أيار كان قد أقيم في عام ١٩٠٧ في محلة "الروشة" على الشاطئ الغربي لمدينة بيروت. وخطب في ذلك الإحتفال عدد من العمال والمثقفين كان أبرزهم إلى جانب خير الله خير الله، الشيخ مصطفى الغلاييني والأديب فيلكس فارس.

لم يبقَ يوسف يزبك سوى عامين في كل من الحزب الشيوعي وحزب الشعب. ففي أواخر عام ١٩٢٥ غادر إلى فرنسا. وفضَّل البقاء في علاقة فكرية مع رفاقه الشيوعيين باسم الاشتراكية من دون التزام تنظيمي. وكان قبل أن يغادر الحزب إلى فرنسا قد أسَّس في عام ١٩٢٥ جريدة "الإنسانية" مستعيراً إسم الجريدة التي أسسها زعيم الاشتراكية الفرنسية جان جوريس، الذي اغتاله متطرفون فرنسيون في عام ١٩١٤ بسبب موقفه المعادي للحرب. لكن الجريدة لم تعش طويلاً. إذ أغلقتها سلطات الانتداب. وبدأ يوسف منذ ذلك التاريخ يؤسس لنفسه طريقة حياة مختلفة عن البدايات، ونمطاً من العمل الفكري والسياسي كان ميدانه الإهتمام بتاريخ لبنان الحديث وبأحداثه المفصلية. كما تابع عمله في الصحافة. فأسَّس في ثلاثينات

القرن جريدة "السيار" التي سرعان ما أغلقتها سلطات الانتداب. ولم ييأس. وعندما تقرر إصدار مجلة "الطليعة" في عام ١٩٣٥ شارك مع عدد من أصدقائه من كبار مفكّري تلك الحقبة، سليم خياطة ورئيف خوري وكامل عياد ورجا حوراني وميشال عفلق وآخرين في تأسيسها. ونشر فيها بعض أهم كتاباته. وصدرت له عنها بعض أهم مؤلفاته ومنها: "النفط مستعبد الشعوب". وهو كتاب كان يستشرف فيه يزبك مستقبل تلك الثروة وآثارها السلبية على حياة شعوبنا العربية بعكس ما يشير إليه اكتشافها من عناصر التقدم. أثار ذلك الكتاب لدى صدوره اهتماماً كبيراً في لبنان وفي العالم العربي. ومن بين الذين أشادوا بالكتاب الأديب والمفكر عباس محمود العقاد الذي قال فيه: "يجمع هذا الكتاب معلومات قيمة لا غنى عنها لمن يريد أن يفهم المسألة الشرقية بحذافيرها، كما ينبغي أن نفهم في هذا العصر الحديث".

قليلون يعرفون أن مجلة "الطليعة" قد صدرت في أعقاب المؤتمر الذي عقد في عام ١٩٣٤ في منزل النائب والوزير الأسبق يوسف الهراوي في زحلة بمبادرة من الحزب الشيوعي اللبناني السوري من خلال المثقفين الذين كانوا ينتمون إليه. وصدر عن المؤتمر بيان يدعو إلى وحدة البلدان العربية على أساس فدرالي وعلى قاعدة حرية الإختيار، وبالإرتكاز إلى الديمقراطية. وقرر المؤتمر إصدار المجلة لتحمل إلى القراء أفكاره واتجاهاته الديمقراطية التحررية. وظلت تصدر من عام ١٩٣٥ حتى عام ١٩٣٩,

في عام ١٩٣٩ ومع بداية الحرب العالمية الثانية وصعود الفاشية والنازية عقد المؤتمر الأول "لعصبة مكافحة الفاشية والنازية في لبنان وسوريا" التي كانت قد تأسست في عام ١٩٣٧. وشارك في تأسيسها وفي مؤتمرها الأول عدد من كبار مثقفي البلدين. وكان يزبك من المؤسسين الأوائل للعصبة. وأسندت رئاسة العصبة في المؤتمر الأول إلى المهندس أنطون ثابت. في عام

١٩٤١ صدرت مجلة "الطريق". وكان يزبك عضواً في هيئة تحريرها إلى جانب أنطون ثابت مؤسسها وعمر فاخوري ورئيف خوري وكامل عياد وقدري قلعجي. وكان من أبرز كتاب تلك المجلة على امتداد حياته.

تابع يزبك اهتمامه، في السنوات اللاحقة، بتأريخ الأحداث الكبرى التي شهدها لبنان، وشهدتها المنطقة. كما تابع الاهتمام ببعض أبطال تلك الأحداث. وكان من أهم تلك الأحداث بالنسبة إليه ما جرى في عام ١٨٥٨ بقيادة الثائر اللبناني طانيوس شاهين على رأس فلاحي جبل لبنان ضد الإقطاعيين. وهي الثورة التي حولها الإقطاعيون إلى فتنة طائفية، عرفت بفتنة عام ١٨٦٠. كتب يزبك قصة طانيوس شاهين ليبرز سمات ذلك الثائر وليحرره ويحرر ثورته من أي طابع طائفي. فطانيوس شاهين كان مسيحياً مارونياً. وكانت ثورته ضد إقطاعيين مسيحيين موارنة. لكن يزبك لم يكتفِ بالاهتمام بزعيم الثورة. بل هو ظلَّ يبحث عن جذور الأحداث التي أعقبت الثورة، إلى أن توصَّل إلى الحصول على مذكرات أحد الذين عايشوا تلك الأحداث. فنشرها وحقَّقها وتولت إصدارها مجلة "الطليعة" الآنفة الذكر، في كتاب يحمل إسم "ثورة وفتنة في لبنان". ويشرح يزبك غرضه من تلك المذكرات:" ونرى العقيقي أيضاً يتوسع في رواية بعض المذابح المؤلمة التي جرت عامئذٍ، ويسهب في وصفها إسهاباً قد ينكأ نشره اليوم الجراح، ويحك جلدة المصطادين في الماء العكر من طلاب الوظائف وسعاة التفرقة، ويستغله عمال الاستعمار لإيقاظ الأحقاد الدفينة. وإذا صحَّ هذا التوقع . وهو صحيح! . وربح الرجعيون بعض الربح من نشر هذه المذكرات، فإن للقضية الوطنية، وللقضية الشعبية، وللحقيقة التاريخية معهما، فوائد وأرباحاً عظيمة من وراء نشرها مع الإيضاحات التي نعلقها عليها. بل نقول: إن نشر هذه الحوادث الدامية وشرحها الشرح النزيه واجبان على كل كاتب يعمل للأجيال المقبلة لأنها مدرسة جزيلة الخير للشعب يتعلم منها أضرار التعصب الذميم الذي ينتفع منه النافخون في

بوقه، وهم أفراد، ويحترق في أتونه الآخرون، وهم مجموع الأمة، ويعتبر بالانحطاط البهيمي الذي تدنت إليه الجماهير بسبب انقيادها للزعامة السافلة، ويلمس لمس اليد أن كل أجنبي عن هذه الديار . أتركياً (مسلماً) كان أم أوروبياً (مسيحياً) . قد تاجر بأجدادنا وأباح سفك دمائهم لأجل مطامعه... بل يعتبر بحقيقة أدهى وآلم: إذ يرى أن أحفاد أولئك الإقطاعيين والموظفين الأجانب الذين سببوا المذابح، وأباحوا الأعراض والدماء والأرزاق، أن أحفاد أولئك الإقطاعيين المجرمين ما يزالون اليوم، كما كان جدودهم منذ ثمانين سنة، حرباً مع الأجنبي على الشعب اللبناني! وهذا التضامن الإقطاعي الاستعماري هو نتيجة منطقية للأسباب التي يقوم عليها النظام الحالي في العالم".

كان من بين ما تركه يزبك للمؤرِّخين وللشعب اللبناني مجموعة مجلته "أوراق لبنانية" في ثلاثة مجلدات. وهي تختلف في سياقها وفي بعض مواقفه فيها عن الطريقة العلمية في البحث التاريخي التي اتسمت بها كتبه الأخرى. أما آخر كتابين صدرا له فهما كتابه "الجواد العربي" الذي يقدم صورة حية للجواد العربي وللدور الذي لعبه في حياة العرب القدماء. والكتاب الثاني هو "الجذور التاريخية للحرب الأهلية اللبنانية". وهذا الكتاب هو عبارة عن مجموعة كتابات قديمة وحديثة، جمعها له ابنه ابراهيم. وفي هذا الكتاب محاولة من قبل يزبك لاستخلاص الدروس من كل الحروب الأهلية التي عرفها الشعب اللبناني، لكي يتمكن من بناء أسس دولتهم الحديثة التي ما تزال قيد البحث. وكان قد سافر إلى باريس مع بداية الحرب الأهلية حيث عمل محرراً في مجلة "المستقبل". وتوفي في عام ١٩٨٥.

تلك هي شذرات من سيرة هذه الشخصية اللبنانية الفذة، حاولت من خلالها أن أشير إلى العناصر المتعددة التي تتكون منها، من دون أن اترك لأي من تلك العناصر أن يطغى على

سواه. وقد ساعدني في ذلك كوني تعرفت إلى يوسف يزبك في أوائل سبعينات القرن الماضي. ونشأت بيننا صداقة استمرت إلى آخر أيام عمره. ولم أتوقف عن اللقاء به والحديث معه في سائر الشؤون والهموم المشتركة بيننا، حتى حين انتقل إلى باريس مع بداية الحرب الأهلية. ورغم أنني اطلعت منه على بعض الوثائق المتصلة بمراحل تاريخ حياته منذ البدايات، إلاَّ أنَّ معظم تلك الوثائق قد انتقل بعد وفاته إلى ابنه إبراهيم الذي نأمل منه أن يفرج عنها لكي يقدم للبنانيين سيرة كاملة لمثقف طليعي كان شاهداً مميزاً على عصره.